

التفكير النقدي



العدد السابع: حين نعتقد المعتقدات دون دليل كافي
لماذا يعبر البشر أحياناً عن شيء ما بثقة مطلقة بينما هم في الواقع لا يملكون إلا ظناً، لا يقيناً؟ هذا السؤال هو أحد أقدم هموم نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا)، وفي الوقت نفسه أحد أكثر أخطاء حواراتنا اليومية شيوعاً: التعبير عن "ظن" بلهجة "واقع قطعي".

في علم أصول الفقه الشيعي، ثمة بحث مفصل ودقيق حول "حجية الظن": هل مجرد الظن القوي يكفي ليكون مبنئ للعمل، أم يجب البحث عن دليل قطعي؟ لقد فَرَّق الأصوليون بين أنواع الظنون: فبعض الظنون تُعَدُّ "حجة" (معتبرة للعمل) لدليل خاص أقيم على حجيتها في الشرع، ولكن هذه الحجية لا تصدر تلقائياً لأي ظن؛ بل تحتاج إلى دليل معتبر لاعتبار ذلك الظن الخاص. هذه الدقة المنهجية هي نموذج للفصل بين "الظن الذي لديه دليل معتبر للقبول" و"الظن الذي تأخذه على محمل الجد لمجرد أنه بدا لنا قوياً".

في الحياة اليومية، يحدث هذا الخطأ عادةً عندما يتبنى شخص ما فكرة - غالباً بسبب تكرارها في محيطه - بوصفها واقعاً مسلماً به، دون أن يسأل يوماً: ما هو الدليل المستقل على هذه الدعوى؟ الأصل البسيط الذي يمكن استخلاصه: يجب أن يتناسب مستوى اليقين الذي نستخدمه في التعبير عن قضية ما، مع مستوى اليقين في الأدلة الداعمة لها؛ لا أكثر.

تمرين هذا العدد: اليوم حين تقول جملة بلهجة قاطعة ("حتماً"، "قطعاً"، "الجميع يعلم"، أسأل نفسك: هل أنا واثق إلى هذا الحد حقاً، أم أنني اعتدت على هذه اللهجة فقط؟ الخلاصة: اللهجة القاطعة ليست بديلاً عن الدليل الكافي؛ يجب موازنة يقين التعبير مع يقين الأدلة.

ومضات



* استطلاع خاتم الأنبياء ﷺ أن يتّوَجَّ جهود سلفه الطاهر بإقامة أنظف وأظهر دولة في التاريخ، شكّلت بحقّ منعطفاً عظيماً في تاريخ الإنسان، وجسّدت مبادئ الدّولة الصالحة تجسيداً كاملاً ورائعاً.

لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية ع:

* على الرغم من أنَّ الدّولة قد تولّوها في كثير من الأحيان بعد وفاة الرسول الأعظم قادة لا يعيشون أهدافها الحقيقيّة ورسالتها العظيمة فإنّ الإمامة التي كانت امتداداً وروحياً وعقائديّاً للنّبوة ووريثاً لرسالات الشّمام مارست باستمرار دورها في محاولة تصحيح مسار هذه الدّولة وإعادتها إلى طريقها النّبويّ الصحيح.

لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية ع:

* أمّا الأنبياء والسّائرون في موكب التّحرير الذي قادهم هؤلاء الأنبياء والأئمّة من خلفائهم وقواعدهم فقد آمنوا بهذه السيادة لله تعالى وحزروا بها أنفسهم والإنسانيّة من الوهيّة الإنسان بكلّ أشكالها المزوّرة على مرّ التاريخ لأنّهم أعطوا لهذه الحقيقة مدلولها الموضوعيّ المحدّد المتمثّل في الشريعة النّازلة بالوحي من السّماء فلم يعد بالإمكان أن تُستغفل لتكريس سلطة فرد أو عائلة أو طبقة بوصفها سلطة إلهيّة.

لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية ع:

* لقد كانت الجماعة البشريّة هي التي مُنحت - ممثّلة في آدم (عليه السلام) - هذه الخلافة فهي إذاً المكلّفة برعاية الكون وتدبير أمر الإنسان والسير بالبشريّة في الطريق المرسوم للخلافة الرّباتيّة.

خليفة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٣٠

* الوحي وحده هو القادر على أن يؤمّن التربية الثّوريّة والخلفيّة النفسيّة الصّالحة التي تنشئ نائرين لا يربدون في الأرض علوّاً ولا فساداً، وتجعل من المستضعفين أئمةً لكي يتحمّلوا أعباء الخلافة بحقّ ويكونوا هم الوارثين.

خليفة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٢٠٠

* النبيّ الرسول هو حامل الرّسالة من السّماء، والإنسان المبنيّ ربّانيتها لكي يبني الثّورة قواعدها الصّالحة ويبعد إلى الجماعة الشّروط الحقيقيّة لاستعادة دورها الخلفائيّ الصّالح.

خليفة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٢١٠

أسئلة الورود

السؤال: هل تؤيد نصوص القرآن وأهل البيت ﷺ القول بوحدة الوجود، بمعنى أن الموجود الحقيقي واحد هو الله، وأن الكثرة في العالم مجرد اعتبار ذهني، وأن الخلق ليسوا سوى تجليات للذات الإلهية؟

الجواب: إن مصطلح "وحدة الوجود" استُعمل بمعان متعددة، إلا أن المقصود هنا هو الرأي الذي ينفي التمايز الحقيقي بين الخالق والمخلوق، ويعتبر الموجودات عين الوجود الإلهي، وأن الكثرة ليست إلا وهماً ذهنياً. وهذا المعنى لا يجد له أصلاً في القرآن الكريم ولا في أحاديث

أهل البيت ﷺ، بل إن نصوص التوحيد تنقضه بصورة واضحة. فالتوحيد في الإسلام لا يقوم على مجرد القول بوحدة الوجود، وإنما على الإيمان بأن الله تعالى واحد لا شريك له، وهو الخالق وكل ما سواه مخلوق، قائم بالله ومفتقر إليه، مع بقاء التمايز الحقيقي بينهما. أما القول بأن الخلق هم عين الله أو أن وجودهم هو ذاته، فإنه يزيل الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق، ويجعل الخلق مجرد ظهورات للذات الإلهية، وهو ما يناقض حقيقة الخلق التي يقرها القرآن. وقد أكد القرآن هذا الأصل في قوله

تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ميثباً وجود خالق ومخلوق، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، نافياً أي مماثلة أو مشاركة بين الله وخلقه. ومن ثم فإن القول بعينية الموجودات لله أو اتحادها به شريك له، وهو الخالق وكل ما سواه مخلوق، قائم بالله ومفتقر إليه، مع بقاء التمايز الحقيقي بينهما. أما القول بأن الخلق هم عين الله أو أن وجودهم هو ذاته، فإنه يزيل الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق، ويجعل الخلق مجرد ظهورات للذات الإلهية، وهو ما يناقض حقيقة الخلق التي يقرها القرآن. وقد أكد القرآن هذا الأصل في قوله

هل «وحدة الوجود» تنسجم مع توحيد القرآن وأهل البيت ﷺ؟

فجعل حقيقة التوحيد قائمة على التمييز بين الخالق والمخلوق، مع التأكيد أن الله تعالى لا يشبه ما يتصوره الإنسان. وقال الإمام الصادق ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خلّو من خلقه، وخلقه خلّو منه»، وهو صريح في نفي الاتحاد والعينية. كما قال الإمام الرضا ﷺ: «كل ما في الخلق لا يوجد في خالقه، وكل ما يمكن فيه يمتنع عن صانعه»، مؤكداً المباينة الحقيقية بين الله وخلقه. كما تضافرت الروايات على أن الله كان ولا شيء معه، مما يدل على أن علاقة العالم بالله هي علاقة خلق وإيجاد، لا

علاقة اتحاد أو تجلّ يزيل الفارق بين الطرفين. ومع ذلك، يمكن حمل بعض كلمات العرفاء على معنى صحيح إذا أُريد بها أن جميع الموجودات فقيرة إلى الله، وأن وجودها قائم به وليس مستقلاً عنه. فهذا يعتبر عن افتقار المخلوق إلى خالقه، لا عن اتحاد به أو كونه عين ذاته. أما إذا تجاوز هذا المعنى إلى القول بأن الكثرة وهم، أو أن الموجودات هي الذات الإلهية نفسها، فإنه يصحح مخالفاً لما قرره القرآن وأهل البيت ﷺ.

المصدر: مركز الرصد العقائدي (مع اختصار)

فذلكة الاستخارة

قال: "وكيف تكون شاذة وقد دونها المحدثون في كتبهم والمصنفون في مصنفاتهم وقد صنف السيد العالم العابد صاحب الكرامات الظاهرة والمآثر الباهرة رضي الدين أبو الحسن علي بن طائوس الحسني ﷺ كتاباً ضخماً في الاستخارات واعتمد فيه على رواية الرقاق وذكر من آثارها عجائب وغرائب أراه الله تعالى إياها. وقال: إذا توالى الأمر في الرقاق فهو خير محض، وإن توالى النهي فذلك الأمر شر محض، وإن تفرقت كان الخير والشر موزعاً بحسب نرفقها على أزمنة ذلك الأمر بحسب ترتبها".

المصدر: بحار الأنوار [ط - بيروت] ج ٨٨، ص ٢٨٧.

الهامش فأدرجوه في المتن. وقال السيد بن طائوس ﷺ عندي من المقتبة نسخة عتيقة جليلة كتبت في حياة المفيد ﷺ، وليست فيه هذه الزيادة ولعلها قد كانت من كلام غير المفيد على حاشية المقتبة فنقلها بعض الناسخين فصارت في الأصل. ثم أولّها على تقدير كونها من الشيخ بتأويلات كثيرة - وأجاب عن كلام المحقق وابن إدريس ﷺ بوجه شتى لم نتعرض لها لقلة الجدوى. وقال الشهيد -رفع الله درجته- في الذكرى: «وإنكار ابن إدريس الاستخارة بالرقاع لا مأخذ له مع اشتهاها بين الأصحاب لعدم راد لها سواء ومن أخذ مأخذ كالشيخ نجم الدين».

يختارون في كتب الفقه إلا ما اخترناه، ولا يذكرون البنادق والرقاع والفرقة إلا في كتب العبادات دون كتب الفقه» ذكر أن الشيخين وأبي البراج لم يذكروها في كتبهم الفقهية". ووافقه المحقق فقال: "وأما الرقاق وما يتضمنه أفعل ولا تفعل = ففي حيز الشذوذ فلا عبرة بهما". وأصل هذا الكلام من المفيد ﷺ في المقتبة حيث أورد أولاً أخبار الاستخارة بالدعاء والاستشارة وغيرهما مما ذكرنا أولاً ثم أورد استخارة ذات الرقاق وكيفيتها ثم قال: "قال الشيخ وهذه الرواية شاذة ليست كالذي تقدم لكننا أوردناها للرخصة دون تحقيق العمل بها". انتهى. ولعله مما ألحقه أخيراً في

شيعية جمهورية أذربيجان؛ من الجذور التاريخية للتشيع إلى تحديات الهوية والدور السياسي

«دراسة وتحليل لأوضاع الشيعية في جمهورية أذربيجان» للباحثين مرضى أشفيي ومجلىي شرفي، منشور في مجلة «دراسات شيعية» (شهره شاسي)، العدد ٥٨، سنة ١٣٩٦هـ ش (٢٠١٧م)، ص ٢٧٢-٢٨٠.

كما يوفر البحث إطاراً مفيداً لفهم التجربة الشيعية في القوقاز، والعلاقة بين الدين والهوية والسياسة في المجتمعات المسلمة ذات الأنظمة العلمانية. **تقييم تحريري** يتميز المقال بقدرته على الربط بين المراحل التاريخية والعوامل السياسية المؤثرة في واقع الشيعية الأذربيجانيين، كما يقدم مادة مهمة لفهم إحدى أكبر التجمعات الشيعية خارج العالم الغربي. ومع ذلك، كان يمكن تعزيز الدراسة بمزيد من المعطيات الميدانية حول اتجاهات المجتمع الأذربيجاني المعاصر، ولا سيما مواقف الشباب من الدين والسياسة، إضافة إلى عرض مقارن أوسع مع تجارب شيعية أخرى. بصورة عامة، يمثل البحث دراسة ناعمة لفهم طبيعة التشيع في أذربيجان، حيث يتشكل حضوره من خلال تفاعل معقد بين التاريخ والهوية والسياسة والتحولات الإقليمية. إعداد: الأفاق

مع إيران. فقد أسهمت قضية قره باغ في تعزيز بعض الطوائف الإسلامية، لكنها أثرت أيضاً في نظرة المجتمع إلى العلاقات الإقليمية. أما العلاقة مع إيران، فقد كان لها تأثير ثقافي وديني واضح، لكنها أصبحت أحياناً سبباً للضغط السياسية على بعض التيارات الشيعية. ويشير البحث إلى وجود فرص مهمة أمام الشيعية في أذربيجان، أبرزها الأغلبية السكانية، والعمق التاريخي للتشيع، واستمرار الشعائر الدينية. وفي المقابل، تواجه البيئة الشيعية تحديات واقع علمانية، ونشاط بعض التيارات المنافسة، وتأثير التحويلات الثقافية الحديثة. **القيمة العلمية** تكمن أهمية المقال في تقديمه رؤية شاملة لواقع الشيعية في أذربيجان، تجمع بين التاريخ والسياسة والاجتماع، وتوضح أن التشيع هناك ليس مجرد انتماء مذهبي، بل عنصر من عناصر الهوية الجماعية المتفاعلة مع ظروف الدولة والمجتمع.

رسمياً. وقد أسهمت هذه المرحلة في تشكيل الهوية الدينية لسكان المنطقة. أما في العهد القيصري، فقد عملت روسيا على ضبط المؤسسات الدينية للمسلمين وتقليل ارتباطهم بالمراكز العلمية الشيعية في إيران والعراق. وفي الحقبة السوفيتية، تعرض الدين لسياسات الإقصاء، وأغلقت المساجد وقُيدت الشعائر، إلا أن التشيع استمر عبر العادات الاجتماعية والممارسات الدينية التقليدية. بعد استقلال أذربيجان عام ١٩٩١م، عاد الإسلام تدريجياً إلى المجال العام، وظهرت أحزاب ومؤسسات شيعية، كان أبرزها الحزب الإسلامي الأذربيجاني. غير أن هذه التيارات واجهت تحديات متعددة، منها النظام العلماني، وضعف التنظيم السياسي، واقتصار النشاط في بعض المناطق مثل نارداران والمناطق الجنوبية. كما يناقش المقال تأثير العوامل الإقليمية في واقع الشيعية، وفي مقدمتها قضية قره باغ والعلاقات

شيعية ونظام سياسي علماني؟ وما العوامل المؤثرة في نشاط التيارات الإسلامية الشيعية؟ وتتمثل إشكالية البحث في تفسير التباين بين الأغلبية العددية للشيعية وبين محدودية تأثيرهم السياسي؛ إذ إن الهوية الشيعية بقيت عنصرًا ثقافيًا واجتماعيًا مهمًا، لكنها لم تتحول إلى قوة سياسية واسعة النفوذ.

منهج الدراسة اعتمد البحث المنهج التاريخي والتحليلي، من خلال تتبع مراحل تطور الإسلام والتشيع في أذربيجان، وتحليل أثر التحولات السياسية والاجتماعية في مكانة الدين. كما استفاد من الدراسات التاريخية والسياسية والإحصاءات المتاحة لدراسة المؤسسات الدينية والتأثيرات

أبرز الأفكار والناتج يبين البحث أن الإسلام دخل أذربيجان منذ القرن السابع الميلادي، ثم ترسخ التشيع مع الدولة الصفوية التي جعلت المذهب الشيعي مذهباً

موضوع المقال يتناول البحث واقع الشيعية في جمهورية أذربيجان من خلال دراسة تاريخية وسياسية واجتماعية لمسار التشيع في هذه المنطقة، موضحاً أن فهم الوضع الديني الراهن لا يمكن أن يتم بمعزل عن التحولات الكبرى التي مرت بها البلاد؛ من العصر الصفوي، مروراً بالحكم القيصري والسوفيتي، وصولاً إلى مرحلة الاستقلال.

ويركز المقال على خصوصية التجربة الشيعية الأذربيجانية؛ فمع أن الشيعية يشكلون غالبية سكان البلاد، فإن التشيع لم يتحول إلى مشروع سياسي مهمين كما هو الحال في بعض المجتمعات الشيعية الأخرى، بسبب تأثير الإرث السوفيتي، وترسخ الثقافة العلمانية، وطبيعة النظام السياسي بعد الاستقلال.

سؤال البحث وإشكاليته يسعى الباحثان إلى الإجابة عن أسئلة أساسية، منها: كيف تشكلت الهوية الشيعية في أذربيجان؟ وما طبيعة حضور التشيع في مجتمع ذي أغلبية

الخفة في الأحكام الفقهية

م. الشيخ حسين التميمي
العتبة العباسية المقدسة

المكلف مراعاته وفق الضوابط الشرعية، وتظهر أهمية مفهوم الخفة بصورة أوضح في المعاملات المالية، فلو استدان الإنسان مالاً من شخص، أصبح المال ديناً ثابتاً في ذمته، ولا تبرأ ذمته إلا بالأداء أو بما يوجب سقوط الحق شرعاً، وكذلك في الحقوق المتعلقة بالآخرين، فإن الأصل

والمعاملات؛ فقد تثبت في ذمة الإنسان صلاة أو صوم عند تحقق موجب القضاء، كما قد تثبت في ذمته أموال أو ديون לאחרين نتيجة الاقتراض أو البيع أو غير ذلك من المعاملات. وفي هذه الحالات لا يكون الأمر مجرد التزام أخلاقي، وإنما هو حق شرعي يترتب في العهدة، ويجب على

بأدائها عند تحقق أسبابها وشروطها، ومن هنا ترتبط الخفة بفكرة المسؤولية الشرعية، إذ إن بعض الأحكام لا تنتهي آثارها بمجرد مرور الزمن أو نسيانها، بل قد تبقى ثابتة في ذمة المكلف حتى يحصل الامتثال أو تبرأ الذمة منها. ويتضح ذلك في أبواب العبادات

تعتبر الذمة من المصطلحات المهمة في الفقه الإسلامي، لما لها من ارتباط مباشر بحقوق الإنسان والتزاماته الشرعية والمالية. والمقصود بالخفة في الاصطلاح الفقهي هو ما يُتصور بثبوته في عهدة الإنسان من حقوق أو تكاليف أو التزامات شرعية، بحيث يكون الإنسان مطالباً

العلامة عبد الحسين الأميني... حارس الغدير وذاكرة التراث الشيعي

إلى جانب «الغدير»، ترك العلامة الأميني عدداً من المؤلفات والتحقيقات المهمة، من أبرزها كتاب «شهداء الفضيلة» الذي وثّق فيه تراجم عدد من علماء الشيعة وشخصياتهم العلمية، إضافة إلى أعمال أخرى في الحديث والتاريخ والتراجم. وتكشف هذه الآثار عن اهتمامه الواسع بتوثيق حياة العلماء وحفظ جهودهم العلمية. لا تكمن أهمية تجربة العلامة الأميني في مؤلفاته فقط، بل في منهجه الذي جمع بين التحقيق الدقيق والإحاطة بالمصادر والالتزام بالدليل. وفي عصر تنزاد فيه الحاجة إلى قراءة التراث قراءة علمية، تبقى تجربته نموذجاً للعالم الذي حوّل البحث في التاريخ والعقيدة إلى مشروع معرفي متكامل. يبقى العلامة عبد الحسين الأميني مثلاً للعالم الذي جعل من الدفاع عن الحقيقة العلمية وخدمة تراث أهل البيت ﷺ رسالة عمر، وترك للأجيال موسوعةً خالدة تحفظ جانباً مشرقاً من ذاكرة الفكر الشيعي.

الإسلامي، ونموذجاً للتحقيق الموسوعي القائم على جمع المصادر وتحليلها. **خدمة الكتاب وإنشاء مكتبة أمير المؤمنين** لم تقتصر جهود العلامة الأميني على التأليف، بل امتدت إلى حفظ مصادر التراث وتوفيرها للباحثين. ومن أبرز أعماله تأسيس مكتبة أمير المؤمنين (عليه السلام) العامة في النجف الأشرف، التي جمع فيها عدداً كبيراً من الكتب والمخطوطات النادرة، وجعلها مركزاً لخدمة الباحثين وطلاب العلم. كان اهتمامه بالمكتبات والمخطوطات جزءاً من رؤيته العامة تجاه التراث؛ إذ كان يرى أن صيانة الإنتاج العلمي للأمة تحتاج إلى حفظ مصادره الأصلية وإتاحتها أمام الأجيال الجديدة. وهكذا جمع بين دور المؤلف المحقق ودور الحارس للذاكرة العلمية، مساهمًا في الحفاظ على جانب مهم من التراث الإسلامي والشيعي. **آثار علمية تتجاوز الغدير**

مشروعه العلمي. وتوفي في النجف الأشرف سنة ١٣٩٠هـ. بعد أن ترك وراءه آثاراً علمية جعلته من أبرز أعلام التحقيق في القرن الرابع عشر الهجري. **الغدير... موسوعة الدفاع العلمي عن الولاية** يبقى اسم العلامة الأميني مرتبطاً قبل كل شيء بموسوعته الخالدة «الغدير في الكتاب والسنة والأدب»، التي تُعد من أهم الأعمال الموسوعية في الدراسات الإسلامية المعاصرة. فقد بذل فيها جهوداً استثنائية في جمع النصوص المتعلقة بحديث الغدير، وتتبع مصادره في كتب الحديث والتاريخ والأدب عند مختلف المسلمين، مع دراسة الروايات والشواهد المرتبطة به. تميّزت «الغدير» بأنها لم تقتصر على عرض الأدلة الكلامية، بل قدمت رؤية تاريخية وأدبية واسعة، من خلال استعراض أشعار الشعراء الذين تناولوا حادثة الغدير عبر العصور. ولذلك أصبحت هذه الموسوعة مرجعاً مهماً للباحثين في قضايا الإمامة والتاريخ

خَلَّد اسمه في تاريخ الدراسات الشيعية من خلال موسوعته الكبرى «الغدير في الكتاب والسنة والأدب» التي أصبحت علامة بارزة في البحث حول واقعة الغدير وتراثها الفكري والأدبي. **مسيرة علمية في رحاب النجف** ولد العلامة عبد الحسين الأميني في مدينة تبريز سنة ١٣٢٠هـ، ونشأ في أسرة علمية مهمة بالمعارف الدينية. تلقى علومه الأولى في موطنه، ثم انتقل إلى النجف الأشرف حيث واصل دراسته في الحوزة العلمية على يد عدد من كبار العلماء، وبرع في الفقه والأصول والحديث والرجال والتاريخ. وقد عُرف منذ شبابه بشغفه بالبحث والتحقيق، حتى أصبح من العلماء الذين جمعوا بين التخصص الحوزوي العميق والاهتمام بالمصادر التاريخية. عاش العلامة الأميني حياة حافلة بالتحقيق والتأليف، منتقلاً بين المكتبات ومراكز العلم، باحثاً عن المخطوطات والنصوص القديمة التي تخدم

قُبِسَ مِن نور



م. د. أحمد باقر الطويل

قد يقضي الإنسان عمره في الوصول إلى ما يريد، ثم يكتشف متأخراً أنّه لم يسأل نفسه يوماً: هل كان يستحقّ كلّ هذا العمر؟ نحن نعرف ما نحبّ، ونسعى إليه، لكننا قلّما نتساءل عن الوجهة التي يقودنا إليها هذا الحبّ. فقد لا تكون المشكلة في أن نرغب في شيء، بل في أن نمضي إليه طويلاً حتى ننسى أن نسأل: ماذا سيبقى ممّا حين نبغاه؟

يقول الله تعالى: ﴿يُزَيِّنُ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْتِ ذَلِكَ مُتَاعٌ خَلِيَّةٍ الْأَنْبِيَاءُ وَاللَّهُ عِنْدَهُ خُسْنُ الْمَتَابِ﴾، [آل عمران: ١٤].

تضع الآية أماناً محبوباً تتعلّق بها القلوب، وتُبنى حولها الأحلام، وقد تُثَقّق في سبيلها أعمار كاملة، لكنّ الإنسان لا يطلب الأشياء دائماً لذاتها؛ فقد يطلب المال بحثاً عن الأمان، والنجاح رغبةً في إثبات قيمته، والمكانة طمعاً في اعتراف الآخرين به. وترتّب ما بلغ ما أراد، ثم اكتشف أنّ ما امتلكه لم يمنحه المعنى الذي انتظره منه. وليست النعمة في أن نملك الأشياء فحسب، بل في ألاّ تتحوّل الأشياء إلى ما يملكتنا. فالمال قد يكون باباً للخير، والنجاح سبيلاً للعباء، والأسرة موضعاً للرحمة؛ لكنّ ما كان وسيلةً للحياة قد يستولي على الحياة نفسها، حتى ننشغل بتحصيله عن الغاية التي كان ينبغي أن يعيننا عليها.

وهنا تبدأ خسارة لا تُرى؛ فنحن لا نفقد الأشياء دائماً حين تسقط من أيدينا، بل قد نفقد أعمارنا ونحن نركض خلفها. نُؤجّل وقتاً لأهلنا حتى نفرغ من مشاغلنا، ونؤخّر إصلاح أنفسنا حتى تستقرّ أمورنا. ونرجى عملاً صالحاً لأنّ أماناً ما يبدو أكثر إلحاحاً. ثم تمضي الأيام، ونكتشف أنّ الحياة لم تكن تنتظر اكتمال خططنا.

إنّ العمر ليس رصيداً تُنفق منه ثم نستعيده؛ إنّهُ الطريق نفسه، وكلّ اختيار فيه يأخذنا إلى جهة. وما نمنحه أيّماناً لا يستهلك وقتنا فحسب، بل يشارك في تشكيل الإنسان الذي نصير إليه. لذلك قد لا تكون الخسارة الكبرى أن يفوتنا ما نحبّ، بل أن نبغاه وقد فاتنا في الطريق ما كان أحقّ بالحبّ والرعاية.

وتأتي الآية التالية لنتفتح أمامنا أفقاً أبعد، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ دُرِّكُمْ لِذَلِكِنِ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرُضْوَانٌ مِّنَ اللَّوِّ وَاللَّهُ يُبَصِّرُ الْبَاطِنَ﴾، [آل عمران: ١٥]. فليس المطلوب أن نخاصم الدنيا ونعمها، بل أن نعرف قدرها، وألا نخلط بين ما نتمتّع به زمناً وما يستحق أن يكون غايتها الباقية. إن الإيمان بالأخرة لا ينتزع من الحياة جمالها، بل يمنحها ميزانها؛ فنسعى دون أن نستعبد أنفسنا لما نسعى إليه، ونفرح بما نملك دون أن ننسى ما لا ينبغي أن يفوتنا.

ولعلّ السؤال الذي يستحقّ أن نصطحبه معنا ليس: كم حقّقنا ممّا نتمنّيه؟ بل: ماذا صنع بنا الطريق الذي سلكتناه لتحقيقه؟ فقد يصل الإنسان إلى نهاية العمر محمّلاً بكلّ ما أراه، ثم يكتشف أنّه أحسن اختيار الأشياء التي أحبتها، لكنّه أساء اختيار الوجهة التي أخذته إليها.